مضر ، ولها شعر جاهلي ، وشعر إسلامي فصيح ، يتناول الحماسة والفضائل ، حتى قال حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ عن هذيل ، «إنهم أشعر القبائل العربية» وقال الأصمعي: «فيهم أربعون شاعراً مُفلقاً»[1] ، ولزم الشافعي قبيلة هذيل عدة سنوات ، أو مدة تبلغ عشر سنوات متقطعة ، وفي رواية أنه لزم هذيلاً سبعة عشر عاماً ، فاستفاد منها ـ مع كونه عربياً وقرشياً ـ المعرفة الواسعة باللغة والأدب والشعر ، وحفظ شعر الهذليين الذي يصل إلى عشرة آلاف بيت ، مع إعرابها ومعانيها ، ثم قام بنقله وروايته إلى الناس ، كما حفظ شعر الشَّنْفرى الجاهلي ورواه لغيره ، واستفاد الشافعي من الإقامة مع الهذليين قوة التعبير ، ورصانة العبارة في الأسلوب ، والذوق الرقيق في البيان[2].

الشافعي أستاذ في الأدب:

جمع الإمام الشافعي بين منابع اللغة وأدبها وأشعارها وتاريخها في الدراسة والتلقي عند الهذليين وفي مكة ، وبين فصاحة القرآن العظيم ، وبيانه المبين الذي حفظه غيباً من الصغر ، وكان يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، ويعكف على تدبره ، وتذوق معانيه ، وفهم ألفاظه ، واستنباط الأحكام الشرعية منه ، وكان تعمقه باللغة يساعده في فهم القرآن الكريم ، وكانت فصاحة القرآن وبيانه وتلاوته وتدبره يزيده تعمقاً في اللغة ، حتى صار أستاذاً فيها.

ولذلك قال فيه إمام اللغة الجاحظ ـ مع كونه من أقسى النقاد ، وأنه ينتمي إلى المعتزلة الذين يعادون أهل السنة ـ قولته المشهورة: «نظرت في

---

(١) قال الشافعي نفسه عن هُذَيل: «كانت أفصحَ العرب» انظر: ديوان الشافعي ص ٦ ، الإمام الشافعي للجندي ص ٥٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٤ ، محاضرات جاد الرب ص ١٤.

كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم ، فلم أرَ أحسن تأليفاً من المطلبيّ ، لسانه ينثر الدرّ» .

وكان الإمام الشافعي راوية للشعر ، ينقله لغيره ، ويتسابق العلماء للأخذ عنه ، وصحح عدد من علماء العربية شعر الهذليين على الشافعي ، منهم أبو ذؤيب ، وأبو كبير ، وأبو قلابة ، والمتنخل ، والأصمعي وغيرهم .

قال الأصمعي: «صححت شعر هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس» وفي رواية: «قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له محمد بن إدريس» ونقل أبو عثمان المازني أنه سمع الأصمعي يقول: «قرأت شعر الشنفرى على الشافعي بمكة»[1] ، وروى الحاكم عن مصعب الزبيري قال: «قرأ الشافعي أشعار هذيل حفظاً ، ثم قال لي: لا تخبر بهذا أحداً»[2] .

وكان الشافعي فصيح اللسان ، يجيد القراءة الجميلة ، والإلقاء المعبر ، والخطابة المؤثرة ، كما كان قوي الحجة ، مبرزاً في المناظرة ، ويعتبر من الطراز الأول في هذا الخصوص .

وكان أهل اللغة يحضرون مجالس الشافعي ليتمتعوا بنطقه وإلقائه ، وعذوبة ألفاظه ، وقد روى الزعفراني تلميذ الشافعي أنه رأى قوماً من أهل اللغة في درس الشافعي ، فقال لهم: «لم تختلفون معنا؟ (أي تجلسون إليه) قالوا: نسمع لغة الشافعي» ، ويقول الربيع تلميذ الشافعي: «لو رأيت الشافعي وحسن بيانه لتعجبت منه ، ولو ألف هذه الكتب على عربيته التي

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، الإمام الشافعي للجندي ص ٥٢ ، مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٤٤ وما بعدها .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/٤٩ ، الإمام الشافعي ، جاد الرب ص ١٢ ، مناقب الشافعي ، للبيهقي ٢/٤٦ وما بعدها .

يتكلم بها معنا في المناظرة لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه ، غير أنه يجتهد في تأليفه في أن يوضع للعوام» ، وقال عبد الملك بن هشام صاحب «السيرة» ، وعالم اللغة العربية: «طالت مجالستنا للشافعي ، فما سمعت منه لَحْنة قط ، ولا كلمة غيرها أحسن منها ، وعقب على ذلك الذهبي فقال: «أنى يكون ذلك ، وبمثله في الفصاحة يضرب المثل ، كان أفصح قريش في زمانه ، وكان ممن يؤخذ عنه اللغة»[1].

قال أبو منصور الأزهري في «تهذيب اللغة»: «عكفت على المؤلفات التي ألفها علماء الأمصار فألفيت الشافعي أغزرهم علماً ، وأفصحهم لساناً ، وأوسعهم خاطراً»[2].

ويمتاز أسلوب الشافعي الأدبي بجزالة الألفاظ ، ووجازة العبارة ، وقوة التعبير والتأثير ، وكل من قرأ كتبه العلمية في الفقه وأصول الفقه يدرك هذه المعاني والصفات.

الشافعي إمام في اللغة:

إن الإسلام بنصوصه ، والفقه بأصوله ، يتعانقان مع اللغة العربية ، ويتلازمان معهما نظرياً وعملياً ، ويستحيل الفصل بين الإسلام والعربية ، والإمام الشافعي لم يبلغ شأوه في الاجتهاد والفقه إلا بعد أن كان إماماً في اللغة ، كما أن تبحره في اللغة وفهم معانيها وأسرارها أعانه على فهم كتاب الله ، واستنباط مراميه ، ومعرفة دلالته ، وكان له أكبر معين على وضع علم أصول الفقه ، وتدوين قواعده ، وتقرير ضوابطه وأسسه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٤٩ ، ٧٤ ، آداب الشافعي ومناقبه ص ١٣٦ ، الإمام الشافعي للجندي ص ٧٢ وما بعدها ، مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٤٣.

(٢) الإمام الشافعي للجندي ص ٧٣.